السّيرة النبويّة في التراث الأندلسيّ

د. محمد رضوان الداية
كلية الآداب - جامعة دمشق

- ١ -

كانت الأندلس ، على بعدها النائي عن المشرق، موصولة الاسباب به ، وثيقة الصلة . وكانت الحياة الثقافية بخاصّة ، والحضارية بعامة ، وجهاً في جملة وجوه الثقافة العربية الاسلامية : تتشابه منجزاته وصوره حيناً ، وتختلف وتستقلّ حيناً آخر ، ولكنها، على كل حال ، كانت دائمة الاشتباك بالثقافة المشرقية.

وكان (انقطاع) الأندلس السياسيّ عن المشرق منذ أوائل الاستقرار - أي منذ عهد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) معيد دولة بني مروان ... كان إيذاناً بقضايا كثيرة ، ومرشحاً لنتائج خطيرة ترتبت على ذلك الانقطاع . ولكن هذا الموقف السياسي المحض لم يؤثر في طبيعة العلاقات الثقافية بين المشرق والاندلس ، واتصلت الحضارة (في المشرق) ومنجزات الفكر فيه ببلاد المغرب والأندلس من ثلاث جهات :

الجهة الأولى : حركة الكتاب على الوجه الذي كان يخترق فيه أقطار الدولة الكبرى ويستقر عند طلابه وراغبيه . ولا ننسى أن سيطرة العرب بعد فتح المغرب والأندلس امتدت الى طرق التجارة البرية والبحرية ، ولا ننسى أيضا صيرورة بغداد العاصمة الثقافية الاولى بالاضافة الى عدد من المدن والمراكز الثقافية الأخرى. ومن جهة ثانية كان خروج الأندلسيين الى المشرق متلاحقاً لأداء فريضة الحج ، ولقاء العلماء، وأفذاذ الرجال ، على اختلاف معارفهم وما اشتهروا به، ولتلقي العلم وروايته . وكان انتشار المذهب المالكي وغلبته في الأندلس - والمغرب - حافزا لمتابعة تراثه ولقاء رجاله ... ومن جهة ثالثة فان الأندلس منذ استقرار الامور فيها في عصر الامارة المروانية كانت تستقبل الوافدين اليها رغبة منهم ، والشخصيات التي كان يطلب اليها من قبل السلطة الأندلسية الحضور الى قرطبة وغيرها . وكان القصد العلمي هو الغالب المعروف في مثل هذه الدعوات . ويلحق بذلك - من المقاصد والدوافع - الرغبة في بناء الأندلس فكريا وحضاريا ، ومنافسة بغداد وغيرها من عواصم الفكر التي نبغت معها أو بعدها ...

وقد أثبت عدد كبير من العلماء والأدباء الأندلسيين في برامج وفهارس خاصة مروياتهم ومسموعاتهم من الكتب والنصوص ، وذكروا شيوخهم الذين

أخذوا عنهم القراءات والتفاسير والأصول ... الخ. وسلسلوا طرق أخذهم ، ولو وصلت الينا كتب برامج العلماء الأندلسية جميعاً إذن لاجتمعت لدينا معلومات كاملة تقريبا عن حركة الكتاب ، وعن التطوّر الثقافي، وعن سيادة كتب ــ دون سواها ــ في زمان ومكان معينين في البلاد الأندلسية . ومع ضياع كثير من تلك البرامج والفهارس نجد المتبقي منها كافيا للدلالة على ماذهب اليه من اتصال الثقافة المشرقية بالأندلس ، ومن اقتداء الأندلسيين زمانا بالكتاب المشرقي ، في الوقت نفسه الذي كانت الاندلس تخرّج كبار العلماء والفقهاء والأدباء .

ومرّ زمان" قبل أن نرى مؤلفات الأندلسيين أنفسهم في بيان الكتب المقررة ، أو التي تشارك نظائرها من الكتب المشرقية وتسايرها .

... ...

ويصدق هذا الحكم العام ، الغالب ، على قضية تأليف الأندلسيين في موضوع السيرة النبويّة . وعلى رغم استمرار رواية كتب السير والمغازي والأصحاب مما وصل الى الأندلس منذ وقت مبكر ، نجد للأندلسيين باعا في هذا المجال ، يصح أن نعرض له ، وندرسه ، ونبيّن شيئا من خصائصه ومزاياه ، وأبرز أعلامه .

... ...

ــ ٢ ــ

إذن اهتمّ الأندلسيون ــ كالمشارقة ــ ومن مداخل مختلفة بالكتب المؤلفة في السيرة النبوية ، والمغازي ، وأعلام النبوة ، والشمائل ، والمعجزات ... كما اهتموا بالتأليف في صحابته (ص) . وكانت الاصول المشرقية قد انتقلت الى الأندلس ، ورواها جيل عن جيل في متابعة ومواصلة . ونجد في فهرسة ابن خير الاشبيلي أسماء عدد من هذه المؤلفات[1] مثل أعلام النبوة لأبي داود السجستاني ، ودلائل النبوة لأبي ذرّ الهروي ، وشمائل النبي (ص) لأبي عيسى الترمذي، ومغازي ابن عقبة ، والمغازي والسير لابن إسحاق ، وسيرة رسول الله ومغازيه للواقدي ، وسيرة رسول الله لابن اسحاق .. الى غير ذلك من الكتب والمصنّفات .

وكان الى جانب هذه المؤلفات وما جرى مجراها كتب السنّة وكتب الطّبقات ، وكتب الأصحاب ، ممّا يقدم مادة غزيرة في بيان حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودلائل النبوة ، وأحواله ، وشمائله، ومعجزاته . وأسهمت كتب الأدب أيضا في الحديث عن بلاغته (ص) وما أوتيه من جوامع الكلم .

واكتفى الأندلسيون زمانا بما وصل اليهم من المصنّفات الشاملة والمؤلفات الخاصة فيما يخص السيرة النبوية . حتى إذا كان القرن الخامس ــ على الأرجح وبحسب ما وقع لي في المصادر والمراجع المتوفرة ــ ظهر في الاندلس من يخرج على الاكتفاء بالمؤلفات المشرقية في السيرة النبوية وما يتعلق بها. ونعني بذلك ابن عبد البر ، وابن حزم ، العالمين القرطبيين الشهيرين . ثم توالت المؤلفات بعد ذلك على توالي الاجيال ، بالإضافة الى العناية برواية الأصول المشرقية ، فكأن المؤلفات الاندلسية إضافة الى الأصل، أو ايضاح له ، أو انتقاء منه أو غير ذلك من الوجوه التي سأتحدث عنها .

في الفصل الذي عقده ابن خير لما رواه « من كتب السير والأنساب ونحو ذلك مما يتصل به » نجد الكتب المشرقية المعروفة ، كما نجد بعض المؤلفات الأندلسية متداولة متناقلة . فقد ذكر مثلاً كتاب

مغازي رسول الله ﷺ تأليف موسى بن عقبة ، وكتاب السيرة لسليمان بن طرخان التيمي ، وكتاب المغازي للواقدي وكتاب المغازي والسير لابن إسحاق • وسيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام ، وكتاب المغازي لعبد الرزاق بن همام ، وكتاب السير لأبي إسحاق الفزاري ، وكتاب السير لسعيد بن يحيى الأموي •

وذكر فيما رواه عن شيوخه كتاب « الدّرر في اختصار المغازي والسير » لأبي عمر ابن عبد البر القرطبي • وكتاب سيرة رسول الله ﷺ تأليف أبي عيسى يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى اللّيثي • أما الأول فمعروف مشهور وأما الثاني فترجم له في جذور المقتبس (٣٥٤) ، ونقل الترجمة بحروفها الضبي في بغية الملتمس [٢] • وكانت وفاة ابن خير الاشبيلي سنة ٥٧٥ هـ •

وفي برنامج شيوخ الرّعيني ، في ترجمة أبي زكريا يحيى بن عصفور، أنه قرأ على شيخه أبي العباس اللورقي كتاب حجّة الوداع لابن حزم [٣] • وفيه أيضاً في ترجمة أبي القاسم أحمد بن أبي الوليد الأموي ـ أنه قرأ على أبي القاسم السهيلي (من سهيل قرب مالقة بالأندلس) كتاب الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام [٤] • وسمع أبو الحسن سهل بن مالك الأزدي كتاب السهيلي في شرح السيرة [٥] • ومثله أبوالعباس أحمد بن محمد بن مفرج اللخمي[٦]• وفي برنامج الرعيني نفسه في ترجمة ابن أبي عزفة (أبي العباس اللخمي) أنه سمع كتاب الشفا للقاضي عياض اليحصبي الأندلسي السبتي على شيخه أبي عبد الله الجزامي [٧] وسمعه أبو زيد القمارشي [٨] • وتلقى الرعيني كتاب الاكتفاء للكلاعي منه مباشرة [٩] وقال الرّعيني في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأزدي • سمعت عليه جميع كتاب الشفا للقاضي عياض • وكانت وفاة الرعيني سنة ٦٦٦ هـ •

وتحدث ابن أبي الربيع (أبو الحسين عبيد الله ابن محمد بن أبي الربيع القرشي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ) عن مروياته ، فذكر في جملتها كتاب الشفا للقاضي عياض [١٠] •

وكان المؤلفون الأندلسيون يعتمدون في جملة مراجعهم ومصادرهم عدداً من الأصول الأندلسية المتقدمة عليهم ، أخذاً منها ، ووثوقاً بها ، وتقديراً لصنيع أصحابها ، وصحة رواياتهم ، ودقة تصنيفهم ، وحسن تبويبهم ، الى غير ذلك مما يدخل في باب العلم والتأليف وما يتعلق به •

فمن ذلك اعتماد ابن حزم على استاذه ابن عبد البرّ، في مواضع لايدركها الحصر في هذه العجالة[١١]• واعتماد أبي الربيع الكلاعي في كتابه الاكتفا على كتاب شيخه أبي القاسم بن حبيش [١٢] •

ومنه اعتماد القاضي عياض في (الشفا) على جمهرة من شيوخه ، من أشهرهم أبو علي الصدفي الأندلسي ، وعدد من المصادر الأندلسية •

أما ابن سيّد الناس اليعمري الأندلسي الأصل ، المصري ، فيذكر من أصوله الأندلسية التي اعتمد عليها كتاب الأنساب للرشاطي (ت ٥٤٢) المسمى : اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار • وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البرّ القرطبي ، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ • وكتاب : الروض الأنف للسهيلي • ونقل أيضاً عن طرر (حواش وتقييدات) للشلوبين اللغوي النحوي الأندلسي (ت ٦٤٥) •

ولاشك في أن كتب (السّيرة) الاولى التي رويت

وتنوقلت من بلد الى بلد هي الأصل الأول الذي اعتمد عليه كتاب السيرة اللاحقون . ويلخص هذا ما قاله ابن سيد الناس في مقدمة سيرته (١ : ٧) « وعمدتنا فيما نورده من ذلك ــ في سيرته ــ على محمد ابن اسحاق اذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا » . وهذا الاعتماد الكبير على ابن اسحاق لا يعني الاكتفاء بها والوقوف عندها ، فقد كان في كتب السير والمغازي والشمائل والاصحاب وفي كتب السنن وغيرها ما يفتح المجال واسعاً للتأليف والتصنيف والتهذيب . وكان لطبيعة الظروف الثقافية في بلد دون آخر ، وفي زمان دون زمان ما يدعو الى الشرح والايضاح واضافة الحواشي والطرر والتعليقات أو ما يدعو الى كتابة المختصرات التعليمية والمنظومات والأراجيز ... الخ .

فالمادة التي يرجع اليها كتاب السيرة متقاربة ، وتختلف طريقة التناول ، والعرض ، ورغبة المؤلف في الاسهاب أو الاختصار ، والسرد التاريخي أو الاعتماد على التفصيل والتبويب ، وذكر الأسانيد وحذفها ، والاستطراد بالشعر والنسب والخبر أو الاكتفاء بالنزر اليسير من ذلك كلّه ... والقصد الى تناول السيرة بجملتها أو الوقوف عند أعلام نبوته ، أو خصائصه وشمائله أو غزواته أو غير ذلك من أحواله وأفعاله ﷺ .

ويبقى لسيرة ابن عبد البرّ (الدّرر) مكانة خاصة ، وصدى في كتب السيرة وما يلحق بها ، كما تبقى له شخصيته النافذة المؤثرة . ولانكاد نجد واحداً في المؤلفين الأندلسيين استغنى عن كتاب (الدرر) في تأليفه لكتاب في السيرة بالإضافة الى استفادتهم من كتبه الأخرى . وانتقل الكتاب الى المغرب ، والمشرق أيضاً مع الأندلسيين . الذين لم تنقطع رحلاتهم المستمرة الى المشرق واستمرار بعضهم فيه .

وكتب للمؤلفات الأندلسية في السيرة وشروحها ذيوع وانتشار ، وأغلب هذه الكتب طارت لها شهرة في حياة مؤلفيها . فكتاب الدرر كان المعتمد الكبير الذي رجع اليه ابن حزم في تأليف كتابه جوامع السيرة . وكتاب ابن حزم (جوامع السيرة) كان في جملة ما يقرؤه ويدرسه . وقال ابن فرحون في كتاب الشفا لعياض . » .

إنه : أبدع فيه كل الإبداع وسلم له كفاءته فيه ولم ينازعه أحد في الانفراد به ولا أنكروا مزية السبق اليه بل تشوّفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستزادة منه وحمله الناس عنه وطارت نسخه شرقاً وغرباً » . وتحدث الرعيني عن كتاب الكلاعي الاكتفاء فوصفه بالكتاب الجليل ، ووصف المؤلف بأنه أجل من كان بقي من الأعلام الأكابر .

وقال الشوكاني في البدر الطالع (١ : ٢٥٠)في ترجمة ابن سيد الناس : « وله تصانيف منها السيرة النبوية المشهورة التي انتفع بها الناس من أهل عصره فمن بعدهم » . وكانت شهرة كتاب الروض الأنف للسهيلي سبباً في تقريب أمراء الموحدين له واستدعائه الى حضرتهم في مراكش (المطرب ٢٣٢) ...

وكان مؤلفو كتب السيرة وما يلحق بها من الاندلسيين ، في الجملة ، من الشخصيات ذوي المكانة العلمية ــ الفكرية ، المنظور اليهم في فنون من العلم والثقافة والمعرفة وكانوا يشتركون في :

ــ ضبط الرواية ، واتقانها ، والتقدم في علوم الحديث ، والسير والأصحاب ، والرجال ، والتواريخ.

ــ التقدم في علوم القرآن والتفسير والقراءات والأصول والفقه ...

ــ التقدم في علوم اللغة وما يتعلق بها ، والبراعة

في الآداب والاشعار والبصر بطبقات الشعراء ونقد الشعر .

ـ وكانوا ـ في الجملة ـ رؤوس أزمانهم في معارفهم ، واليهم كانت الرحلة ، وقصد التلقي ، والإفادة .

ـ واشتهرت عنهم مؤلفات مختلفة كان لأكثرها شهرة ، ومكانة في فنونها وأبوابها . وكانت المؤلفات في السيرة من مشهور مؤلفاتهم ، بل قد يكون كتاب السيرة ، أبرز أعمال بعضهم فالشفا لعياض والروض الأنف للسهيلي وعيون الأثر لابن سيد الناس تعدّ أشهر ما ألفوا وأكثرها ذيوعاً .

وكانوا في الجملة من الشخصيات الفذة في العلم، وفي جوانب من النشاط الثقافي، والسياسي، والعقائدي، فقد كان ابن حزم إماماً للمذهب الظاهري، وكان الكلاعي مثالاً للعالم العامل المجاهد .(مات شهيداً في وقعة أنيشة عند بلنسية) . وسأبسط في تراجم المؤلفين ، فيما يتبع من هذا المقال ، ما يوضح هذا الجانب ويبينّه .

ولو نظرت في الدوافع التي حفزت أولئك المؤلفين على الكتابة في السيرة لاجتمعت دوافع مشتركة فيما بينهم ، وربما ظهرت دوافع خاصة بمؤلف دون آخر . فمن الدوافع المشتركة : ما قصد اليه المؤلفون من التعبير عن محبة رسول الله ﷺ في صبره ، والتقرب الى الله سبحانه بإظهار محبته(★).والدعوة الى الاقتداء به ﷺ في صبره ، وكفاحه ، وثباته ، وفي أحواله جميعا . والغرض التعليمي الذي يقف وراء وازع عدم كتمان العلم وضرورة بثه في الناس ، والذي يهدف الى تقريب السيرة الى الناشئة أو الكبار ، وتعليمها ، وايضاح ما فيها . وهناك بعد ذلك كله : طبيعة البحث العلمي التي تدفع وتحفز ، وتحرّك الاقلام ،

ومن جهة ثانية نجد ابن عبد البرّ ـ مثلاً ـ يقصد الى تأليف مختصر للسيرة النبوية « سيرة محررة لا تعتمد على كتب السيرة المشهورة وحدها بل تعتمد أيضاً على كتب الحديث ورواية الموثقين مع الموازنة بين الاخبار والأحاديث واستخلاص الآراء الصحيحة ومع الوفاء بالدقة في أسماء الأعلام ، ومع التوقف في موضع التوقف والنفوذ الى الرأي السليم ومع المعرفة الواسعة بالحديث ورجاله وتمييز صحيحه من زائفه .» من مقدمة الدكتور ضيف .

ونجد ابن حزم في جوامع السيرة كان يرمي «الى وضع مختصر قريب المأخذ سهل المتناول في أيدي طلابه كما فعل في كثير من رسائله التاريخية مثل رسالة نقط العروس ورسائله في رجال القراءات والحديث والفتوح وتواريخ الخلفاء ، وأنه كان في هذا المختصر يضع الاصول التي لا يستغني عن تذكرها أو استظهارها كل من اشتغل بالسيرة النبوية من طلاب العلم » ـ من مقدمة المحققين ـ . ولابن حزم غرض آخر : فإن من يعرف قيمة النقل والاستكثار من السنن في مذهب أهل الظاهر عامة وعند ابن حزم خاصة ـ والسيرة جزء هام من هذا النقل ـ يجد أن تناول ابن حزم للسيرة بالنظر

★ ومنذ القرن الخامس فيما وقع لي من الاخبار ـ وربما من قبل ذلك ـ تبدو لنا ظاهرة كتابة الرسائل وارسالها الى مقام النبي (ص) محبة فيه وتشوقا الى زيارته ، وتطلعا الى اداء فريضة الحج والعمرة والزيارة. فمن ذلك رسالة لابي محمد السيد البطليوسي (ت ٥٢١) ورسالة للقاضي عياض (ت ٥٤٤) وترداد هذه الظاهرة انتشارا مع الاعصر التالية أيام الموحدين والنصريين ، كما ترافق اشتداد الحملة على بلاد الاندلس واهلها من تحالف الدول الشمالية ، ومددها الخارجي ... واشتداد المقاومة الاندلسية ـ المغربية .

(وهذه ظاهرة تصح دراستها مستقصاة في الاندلس والمشرق)

الجديد والتحديد والتقيد إنما هو جزء من مذهبه ... والسيرة صورة عليا من الكمال الانساني في نفس ابن حزم ،ولذلك فلا غرابة في أن يجعلها موضوعه المحبب، وأن يحاول وضعها للناس وضعاً ميسراً قريباً بيّن الحقائق .. » .

وقصد القاضي عياض في جملة ما قصد اليه : التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما يجب له من توقير وإكرام ، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر أو قصر في منصبه الجليل قلامة ظفر ، وأن يجمع ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال ... » وذهب الى بيان خصائصه ﷺ التي لم تجتمع قبل في مخلوق » .. مقدمة الشفا للقاضي عياض ٣ ــ ٥ .

أما الكلاعي فقد عاش في مدة اشتدت فيها الحرب بين اجتماع الاندلسيين والمغاربة من جهة ، وبين جمع الدول المعادية في شمال الجزيرة الاندلسية ومن اجتمع اليهم من دول أوربة من جهة أخرى . وتجد في مقدمة سيرة الكلاعي (الاكتفا) صدى لأمرين اثنين .

أحدهما : الدعوة الى سلوك الطريق القويم ، ونبذ الفساد ، والدّعة المفرطة . ودعوة أصحاب القلوب البطالة الى الابتعاد عن موارد الجهالة والضلالة ... فان في السيرة النبوية ما يحفز على الفضل ونبذ المفاسد بالقدوة والاسوة .

والثاني : الدعوة الى الثبات في وجه العدو ، والى جهاده في عقر داره وقد كانت الاندلس في أيام الكلاعي في شدة مواجهة الحرب الصليبية المماثلة للحرب الأخرى على الجهة الشرقية (بلاد الشام والمشرق) . قال في مقدمة الاكتفا : وإنه لايخلو الناظرون في هذا الكتاب من أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله ﷺ في اعداد تنزيله فيستجزلوا ثواب الفرج بنصر الله أو يسمعوا ما امتحنه الله به من المحن التي لا يطيق احتمالها الا نفوس أنبياء الله بتأييد الله فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب ويصطبروا لعوارض الكروب تأدباً بآدابه، وجرياً في الصبر على ما يصيبهم ، والاحتساب على ما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه. وتلك غاية لن نبلغ عفوها بجهدنا ولن نصل أدناها بنهاية ركضنا وشدنا ، وإنما علينا بذل الجهد في قصد الاهتداء ... » . (من المقدمة ١ : ٥٥) . وقد كانت حياة الكلاعي ومماته ، فيما بلغنا من تراجمه ــ من المقتدين ، الصابرين ، المحتسبين .

أما ابن سيد الناس فقد قصد الى التبرك بالدخول في جملة المعتنين بالسيرة ، وهدف أيضاً الى اعادة كتابة السيرة ، بحيث تحقق غرضين معاً : الاختصار والاقتصار على اللباب ، اللاصق بموضوع السيرة دون استطراد . ثم : الاحاطة ــ على قدر الاجتهاد ــ بأخبار النبي ﷺ وأحواله وشمائله ومجريات حياته ، وأهله ، ومغازيه ، وما يتعلق بذلك كله .

وجاءت سيرة ابن سيد الناس (عيون الاثر) جامعة ، وافية ، بالإضافة الى غزارة علمه ، وثقة نقله .

ولا بد من أن يلاحظ الدارس أن العناية بالسيرة النبوية ، وشروحها وإعادة التأليف فيها ، وفي مغازيه ﷺ ومغازي الصحابة (رض) من بعده مرتبط على أكثر من وجه بالموقف الفكري ، والانتباه العقيدي لمواجهة بعض الدعوات ، والفرق ، والدويلات ، التي ترددت أصداؤها في مواطن متفرقة من بلاد المغرب ، والمشرق ، مما يعد مخالفة لما كانت عليه الجماعة ، أو خروجاً على الفكر الإسلامي جملة .

وقد كان لجمهرة الفقهاء والعلماء والمحدثين بالأندلس دور فعال أساسي في مدة دول الطوائف لمنع

حدوث تدهور فكري أو عقيدي قد يرافق الانهيار السياسي والتقاعس الجهادي . وقد أسلفت ، فيما سبق ، أن التأليف الاندلسي في السيرة بدأ ـ على ما رجحت ـ في هذا العصر (القرن الخامس الهجري) .

ثم جاء المرابطون الذين اعتمدوا على جهود الفقهاء ، وأحيوا الجهاد ، ومكنوا أهل العلم والقضاء من مناصب الدولة .

فلما كان عهد الموحّدين ازدادت العناية بالعودة الى الأصول : الكتاب والسنة .

وقد كان العصر الموحّدي عصر ازدهار للكتابة في السيرة النبوية ، والمغازي ، وكتابة الشروح المطولة والمختصرة ، وازدهار فن المدائح النبوية وتسجيل أحداث السيرة في قصائد وأراجيز ... الخ .

وتبرز في هذا المجال ملاحظات وتعليلات عديدة ، أقف منها عند جانبين اثنين :

أحدهما : أن دولة الموحّدين التي قامت على أنقاض دولة المرابطين القوية ، هدفت الى العودة الى القرآن والسنة ، والاهتمام بالأصول دون الاستغراق في الفروع ، والى الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث. ولا شك في أن نشر السيرة ، والتأليف فيها ، يعد في جملة ما يعين على الوقوف عند النصوص والآثار وما يعيد الى الأصول . ونذكر هنا جهود ابن حزم في السيرة وأخذ دولة الموحدين بالمذهب الظاهري وازدهار هذا المذهب في أيامهم من جديد (بالنثيا ٢٣٧ ـ ٢٣٩)

والثاني : أن الموحّدين كانوا يخوضون حرباً ضروساً في الاندلس ، للجهاد والدفاع . وكان خلفاء الموحّدين يحرضون العلماء والمحدثين على توعية الناس ، وتقريب الأحاديث اليهم في قضايا الجهاد والاستشهاد . وكانت (السيرة النبوية) القدوة المثلى والأسوة الحسنة ، لدفع الناس الى التضحية ، والبذل في سبيل الله .. بذل الأموال والأرواح .

ففي أخبارهم أنهم كانوا يحملون مصحفاً وصل اليهم من مصاحف عثمان (رض) أنى توجهوا على ناقة حمراء عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة (المعجب ٣٢٦) .

وفي بعض أخبار أبي يعقوب يوسف أنه لما توجه الى غزو الروم أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الموحّدين ليدرسوها (المعجب ٣٢٨) .

وفي أخبار أبي يوسف يعقوب المنصور (الحلل الموشية ١٥٩) بعد انتصاره في موقعة الأرك (سنة ٥٩١) أمر كاتبه أبا الفضل بن أبي الطاهر أن يوجز في كتاب هذا الفتح ، وأن ينحو منحى كتب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وكان تأليف السهيلي (ت ٥٨١) كتابه الروض الأنف في شرح السيرة سبباً رئيساً في تقريب الخليفة الموحدي له ، واستقدامه الى العاصمة مراكش والمبالغة في إكرامه (المطرب لابن دحية ٢٣٢) .

إن نظرة سريعة الى الكتب والرسائل المؤلفة في غرض السيرة تظهر أن التأليف فيها تناول الجوانب المختلفة المتعلقة بالسيرة النبوية ابتداء من الطرّر والتعليقات والشروح على كتب السيرة المشرقية ، مرورا بالتأليف في بعض خصائص النبي ﷺ من الشمائل والمعجزات والبلاغة النبوية ، وانتهاء الى التأليف الشامل في سيرته العطرة . وقد وصل الينا عدد من هذه الكتب ، وغاب عدد آخر فيما ضاع منها أو فيما نجهل حقيقة مكانه الى أن يظهر في يوم من الأيام.

فمّما ألف في السيرة الشاملة كتاب الدرر لابن عبد البر ، وجوامع السيرة لابن حزم ، والسيرة لأبي حفص الملاي[١٤] ، ومما ألف في معجزاته ﷺ الإحكام

في معجزات النبي عليه السلام لأبي الحسن الجياني[١٥] والدرر البهية في معجزات خير البريّة[١٦] ، وكتاب في معجزات خير البريّة ذكره صاحب النفح في ترجمة ابن غصن الإشبيلي[١٧] والآيات البينات في ذكر ما في اعضاء (؟) رسول الله ﷺ من المعجزات[١٨] .

ومما ألف في خصائصه ﷺ : ملاذ المستعين في بعض خصائص سيّد المرسلين للمنتشاقري[١٩] وخلاصة الصّفا من خصائص المصطفى لأحمد بن ميمون الأشعري[٢٠] .

ولابن دحية كتاب التّنوير في مولد السّراج المنير[٢١] . وللإقليجي : الغرر من كلام سيد البشر[٢٢] والنجم من كلام سيد العرب والعجم ، ولابن دحية ايضا رسالة في شرح أسماء النبي ﷺ .

ومن الشروح كتاب الرّوض الأنف للسهلي ، وكتاب أبي ذرّ الخشني . ومنها طرر للشلوبيني[٢٣] وكتاب لأبي الوليد المهري في تفسير مغازي الواقدي[٢٤]

ولا يمكن الاستقصاء هنا ، وليس ذلك مقصودا، وإنما أنبه الى وفرة المؤلفات والمصنّفات في السيرة وما يتعلق بها ، وأنّ التأليف في ذلك كان تيّارا من تيارات العناية بالسنة النبوية ، والتاريخ الإسلامي بالاضافة الى أنّ في العناية بالسيرة قصدا واضحا الى التعرف الى السيرة العطرة ، والاقتداء بالنبي ﷺ ، والى إظهار محبّته ﷺ ، والتشوق اليه والى روضته ومسجده ، والى الارض المطهّرة .

واذا راجعنا المطبوع من الآثار الأندلسية في السيرة وما يتعلق بها ، استطعنا أن نميّز الاتجاهات التالية :

آ ـ المؤلفات التي قصد أصحابها الى كتابة السّيرة النبوية من مبدئها الى منتهاها مما يخص تاريخ حياته ﷺ وأخباره وشمائله وخصائصه ... ونجد من هذه الكتب :

ـ الدرر في اختصار المغازي والسير لأبي عمر بن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

ـ جوامع السّيرة لأبي محمد بن حزم القرطبي المتوفى سنة ٤٥٦

ـ الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا لأبي الربيع سليمان بن موسى ابن سالم الكلاعي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ .

ويضاف الى هذه المؤلفات كتابان آخران ، ألّفهما عالمان ينتميان الى أصل أندلسي . وعاش أحدهما ـ وهو القاضي عياض(*) ـ مدة في الأندلس ، واستقضي في بعض مدنها ، وأخذ العلم الغزير عن شيوخها . أما الآخر فقد ولد في القاهرة لأب أندلسي، وهو ينتمي الى أسرة عريقة أندلسية اشتهر منها عدد جم من المحدثين والعلماء ، وهو ابن سيّد الناس اليعمري .

وقد حفزني على اعتبارهما في المؤلفين الأندلسيين أنهما ينتميان الى أصل أندلسي قريب . وأنهما اعتمدا في مؤلفاتهما ، وبخاصة الكتب الخاصة بالسيرة ، في جملة ما اعتمدا عليه ، على أصول أندلسية ، فهما على أكثر من وجه ، من المدرسة الاندلسية ، إن صحّ هذا الاطلاق ، ومن جهة ثالثة فاني وجدت كتب التراجم القديمة ، وكتب تاريخ الادب الاندلسي المعاصرة تسلكهما في المؤلفين الاندلسيين كالذي نجده في تاريخ الفكر الأندلسي[٢٥] .

(*) القاضي عياض اندلسي الاصل ، موطنه (سبتة)، وقد ارتبطت هذه المدينة بالاندلس سياسيا في مدد مختلفة، وهي تمثل مركزا متقدما من مراكز الحضارة الاندلسية وصلة هامة مع المغرب من النواحي السياسية والثقافية والتجارية والبشرية ...

والكتابان هما :

ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ .

ـ وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير لابن سيد الناس اليعمري المتوفى سنة ٧٣٤هـ.

ب . المؤلفات التي عُنيت بجانب من جوانب حياة النبي ﷺ أوسيرته ، وبين أيدينا من هذا النّوع كتاب حجة الوداع لابن حزم .

ج . كتب السيرة المختصرة ، التي يختصرها المؤلف عن كتاب مطول سبق أن ألفه . وبين أيدينا من هذا النوع : كتاب : نور العيون في سيرة الامين المأمون ، لابن سيد الناس اليعمري ، وهو أوراق ملخصة من كتابه الذي سبقت الاشارة اليه : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير .

د . كتب الشروح على السّيرة النبويّة ، ولعلّ هذا النوع هو أوّل ماعرفته الأندلس من تقييدات على السيرة . وقرأت في طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي أنّ أبا الوليد المهري صنف كتابا في تفسير مغازي الواقدي [٣٦] .

وبين أيدينا من هذا النوع :

ـ الرّوض الأنف لأبي القاسم السّهيلي، المتوفّى سنة ٥٨١ هـ .

ـ « شرح السّيرة النبّوية » لأبي ذر مصعب بن مسعود الخشني ، المتوفى سنة ٦٠٤ هـ .

وكلا الكتابين شرح على السيرة النبوية برواية ابن هشام .

هـ . المنظومات والأراجيز التي اختصر فيها أصحابها كتب السيرة النبويّة . وهي كثيرة ، ذكر منها أصحاب كتب التراجم ، والبرامج عددا ، وبعضها قد وصل الينا ، وإن كان المطبوع منها قليلا . ويلحق بهذا النوع فن المولديات الذي يختلط فيه المديح النبوي بسرد السيرة . (ويصح أن يستقل هذا النوع بدراسة مستقلة) .

فمن ذلك مانقله ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة[٣٧] من أن احمد بن عيسى بن حجاج المعروف بأبي الوليد الأفيلح وضع أرجوزة مخمسة في السير سماها : « نظم الدرر ونثر الزهر » قال ابن عبد الملك: وهي من أحسن مانظم في معناها ، أودعها نكت السير لأبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار . وألّف أبو بكر ابن ابي الأفيلح المذكور : الدرر البهية في معجزات خير البريّة .

ولأحمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي قصيدة مطولة سماها بـ « خلاصة الصفا من خصائص المصطفى »[٣٨] .

ومن المطبوع لابن سيد الناس اليعمري السابق الذكر قصيدة مطبوعة ، عنوانها « بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب »[٣٩] .

يقتضي الترتيب الزمني ، وقد وصلت الى عرض كتب السيرة وما يتعلق بها ، أن أقدم الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦) لانه توفي قبل ابن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣) . ولكنني سأبدأ بابن عبد البرّ لانه شيخ ابن حزم أولا ، ولأن ابن حزم اعتمد على كتاب شيخه (الدرر) اعتمادا كبيرا ، في جملة ما اعتمد عليه من مصادر ومراجع .

— ٤ —

ابن عبد البر* (٣٦٨ — ٤٦٣)

هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري • من أهل قرطبة ، ولد بها سنة ٣٦٨ ، ونشأ ، وتلقى علومه ، وسمع قبل الأربع مئة بمدّة من جماعة من علماء الأندلس ورواتها • وقد تنقل في البلاد الأندلسية ، فخرج الى الغرب وأقام مدّة • واستقضاه المظفر بن الأفطس (من بني الأفطس أصحاب بطليوس أيام الطوائف) فتولى قضاء الأشبونة وشنترين ، ثم تحوّل الى شرق الأندلس ، وكان ثمة مجاهد العامري ، من أمراء الطوائف ، وكان معروفا بحب العلم وتقريب العلماء ، فجال ابن عبد البر في دانية وبلنسية وشاطبة، وكانت وفاته بشاطبة عن سن متقدمة عام ٤٦٣ •

في ترجمة الحُميدي — تلميذ ابن عبد البر وتلميذ ابن حزم وصاحبه — في جذوة المقتبس لاستاذه ابي عمر ابن عبد البر : أبو عمر فقيه حافظ مكثر، عالم بالقراءات وبالخلاف في الفقه ، وبعلوم الحديث والرجال ، قديم السماع ، كثير الشيوخ • وقد حرص الحميدي على إجازة شيخه ، فكتب اليه بذلك [٣٢] • وقد أثنى على ابن البرّ أبو الوليد الباجي فقال : لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث • وقال ابن بشكوال : هو إمام عصره وواحد دهره[٣٣] • وقال الحجاري : إمام الأندلس في علم الشريعة ورواية الحديث لا أستثني من أحد[٣٤] • وقال ابن حزم في معرض التعريف بكتاب ابن عبد البر « التمهيد لما في الموطّأ من الأسانيد » : « لا أعلم في الكلام على فقه الحديث فكيف أحسن منه ؟ [٣٥] » • وقال ابن خلكان[٣٦] : تقدم في ترجمة الخطيب البغدادي أنه كان حافظ المشرق، وابن عبدالبر حافظ المغرب ، وماتا في سنة واحدة • وهما إمامان في هذا الفن •

وألف ابن عبد البرّ مما جمع تواليف نافعة سارت عنه[٣٧] كما قال الحميدي • فمن تواليفه : التمهيد ، (وقد سبقت الإشارة اليه) ، وكتاب في الصحابة سمّاه: الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، وكتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، وكتاب : بهجة المجالس وأُنس المجالس بما يجري في المذكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات [٣٨] • وغير ذلك من الكتب • ومنها كتاب الدّرر •

سمّى ابن عبد البرّ كتابه « الدّرر في اختصار المغازي والسّير » • فهو قصد كما يظهر في العنوان الى وضع مختصر يفي بالغرض • وقد أوضح هذا في مقدمة الكتاب فافتتحه بذكر منهجه ومراجعه ومصادره الرئيسية فقال : هذا كتاب اختصرت فيه ذكر مبعث النبي ﷺ ، وابتداء نبوته ، وأول أمره في رسالته ومغازيه وسيرته فيها ، لأني ذكرت مولده وحاله في

(*) ترجمة ابن عبد البر في : جذوة المقتبس للحميدي : ٣٤٤ . والصلة لابن بشكوال ٢ : ٦٧٧ وبغية الملتمس للضبي : ٤٧٤ ، ومطمح الانفس لابن خاقان : ٦١ . والمغرب لابن سعيد ٢ : ٤٠٧ . ووفيات الاعيان لابن خلكان ٦: ٦٤. والديباج المذهب لابن فرحون: ٣٥٧. وشذرات الذهب للحنبلي ٣ : ٣٤٤ . وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ٣٠٦ . والعبر في خبر من غبر ٣ : ٢٥٥ . وترتيب المدارك ٤ : ٨٠٨ .

وانظر دراسة آنخل بالنثيا : ٣٩٦ . ومقدمة التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد (للمحققين) . ومقدمة الدرر للدكتور شوقي ضيف والاعلام للزركلي . ومقدمة بهجة المجالس (طبعة المجلس الاعلى بالقاهرة) تحقيق م. الخولي .

نشأته وعيوناً من أخباره في صدر كتابي في الصحابة[٣٩] . وأفردت هذا الكتاب لسائر خبره في مبعثه وأوقاته ﷺ .

وتحدث ، بعد ، عن مصادره وأصوله : واختصرت ذلك من كتاب موسى بن عقبة ، وكتاب ابن اسحاق ، رواية ابن هشام وغيره . وربما ذكرت فيه (الدّرر) خبرا ليس منهما ، والنسق كله على مارسمه ابن إسحاق ، فذكرت مغازيه وسيره (جهاده) على التقريب والاختصار والاقتصار على العيون من ذلك دون الحشو والتخليط[٤٠] .

فكتاب الدّرر إذن وضع ليكون تهذيبا واختصارا لما رواه من كتب السير والمغازي والشمائل والأخبار، من الأصول المعتمدة والروايات المختلفة . ولم يكتف بذلك بل أضاف الى التهذيب والاختصار أخبارا رواها ، وآراء نثرها في جوانب السيرة ، « وهي آراء علم من أعلام الفقه والحديث »[٤١] . وهو من جهة حذف بعض الأسانيد وبعض الحشو ، وكأنما رأى كتب السيرة تحتوي على حشو كثير فرأى أن يكتفي بالدرر والفوائد التي تجعل منها خيطا ممدودا متصلا[٤٢] .

وكما أسلفنا مما نقلناه من مقدمة المؤلف ، فان كتاب الدّرر يبدأ من البعثة النبوية . اما ماقبل ذلك من ولادة الرسول ﷺ ونسبه ووفاة أبيه وأمّه وجده وكفالة عمه أبي طالب ونشأته وأطواره قبل البعثة وزواجه بالسيدة خديجة (رض) فقد أجمله في صدر كتابه : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

وهو ، على متابعته في الخط العام لسيرة ابن إسحاق ، كما أشار في المقدمة ، فانه خرج على ذلك بما حذفه منه ، وبما أضافه من مصادره الأخرى مثل كتاب ابن عقبة في المغازي وكتاب ابن أبي خيثمة ، وروايات شيوخه من الاحاديث .

وقد كان من مصادره الرئيسية سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام ، وبروايتين أخريين : رواية يونس ابن بكير[٤٢] مكرر ورواية ابراهيم بن سعد . واستعان بهذه الروايات على المقارنة والموازنة . ومن مصادره: مغازي الواقدي ، وطبقاته ، وكتاب أبي بكر بن أبي خيثمة . قال الدكتور ضيف : ويظهر أنه كان له كتاب في السنن بجانب كتابه التاريخ الكبير في تعديل الرواة وتجريحهم[٤٣] . قال : ولا شكّ في أن وراءها مصادر أخر لم يعن بايرادها .

وخلاصة القول أن ابن عبد البرّ اقتصر على العيون من الأخبار ، وألّفه بطريقة المحدّث الحافظ ، مبتعدا عما لم يصح من الروايات ، مع مناقشة مارواه من ضعيف الأخبار وذلك بميزان الجرح والتعديل ، وأداره بروح المؤرخ الأديب والناقد الخبير[٤٤] .

وقد كانت السيرة التي صنفها ابن عبد البر (الدرر)* في أول مصادر ابن حزم في (جوامع السيرة) ، وفي أهم مصادر ابن سيد الناس في (عيون الأثر) مما يلحق الحديث به ، في مواضعه . ولا شكّ في أنها كانت بين يدي الأندلسيين الذين ألفوا في السيرة أو في شروحها أو الكتابة في جوانب تتعلّق بها ، كما كانت كتب ابن عبد البر الاخرى شائعة سائرة .

(*) طبع كتاب الدرر في القاهرة ١٣٦٨هـ — ١٩٦٦م من لجنة احياء التراث في المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية . واضطلع بتحقيقه الدكتور شوقي ضيف . وجاء الكتاب في جزء واحد في نحو ٣٥٠ صفحة كبيرة ، يذهب اقل من مئة صفحة منها للمقدمات والفهارس .

ابن حزم * (٣٨٤ ـ ٤٥٦)

نقل المقري في نفح الطيب عن صاعد الأندلسي قوله في ابن حزم : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار »[٤٥] .وقال الدكتور احسان عباس بعد ترجمته لابن حزم : كان نسيج وحده فيمن أنجبتهم الأندلس[٤٦] .

وأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، فقيه الأندلس وعالمها ، وصاحب التصانيف في الفقه والجدل والتواريخ والسير والأصول والآداب. ومجدّد مذهب داود الظاهري ومقعّد أصوله ومبيّن أحكامه . الفقيه الأديب الناقد المؤرخ الوزير .

ينتمي ابن حزم الى أسرة فارسية الأصل ، في أرجح الآراء ؛ ويحسب مانقل ابن حزم نفسه . وكانت أسرته ذات سابقة في خدمة الدولة المروانية ، والعامريّة . وكان أحمد (والده) مشهورا بالعلم والأدب والشعر، وكان وزيرا معدودا في دولة المنصور بن أبي عامر .

وحصل ابن حزم على العلوم الدينية والدنيويّة ، وكانت دائرة إحاطته وتحصيله العلميّ واسعة جدا ، شملت علوم عصره، (عدا الحساب والهندسة)[٤٦] مكرر.

وبعد أن شارك في الحياة السياسية ، وصلي بنارها في مدة الفتنة بعد سقوط العامريين بقرطبة أقلع عن ذلك كلّه ، والتفت الى التأليف ، والدفاع عن الرسالة ومجادلة أهل الملل ، وتشعبت اهتماماته التي ألف فيها فكتب في المنطق ، والفقه ، والأصول والآداب ، والتاريخ ، وتراجم الرجال ، واتسع صدره ليكتب في الحبّ (طوق الحمامة) . وكان ابن حزم لسان المذهب الظاهري فألف فيه كتبا كثيرة ، وتعرّض لنقمة بعض الفقهاء ، وبعض من جاراهم من أمراء الطوائف .

واستمر ابن حزم ، ذا شخصية قوية متمكنة ، يدرس العلم لطلابه الذين يقصدون اليه حيث انتقل ، أو حيث أزعجه الأمراء. ويؤلف الكتب لم يثنه احراق بعض كتبه ... أمر باحراقها المعتضد بن عباد متقربا الى بعض الفقهاء والعامّة ..

وكما كان تحصيله من الآداب والعلوم شاملا واسعا غزيراً ، كانت مؤلفاته انعكاسا لذلك الشمول والاتساع ، وكانت ، أيضا ، كتبا ذات قيمة علمية عالية من مؤلف مدقّق غزير متدفق القلم حاسم الرأي ،قوي الحجّة . وجمع الإمام ابن حزم العلوم النقلية الى العلوم العقلية ، وسمع سماعا جمّا كما قال تلميذه الحميدي[٤٧] . وقد روى الحديث عن علماء كثيرين ، وروى التاريخ للطبري وحدث به عن شيخه ابن الجسور الأموي. وكتب تراجمه تحفل بأسماء شيوخه، وهم كثرة من جهة ، وهم متعدّدو الاهتمام والاختصاص من جهة ثانية .

قال الحميدي إن ابن حزم ألف في فقه الحديث كتابا كبيرا سماه : الايصال الى فقه الخصال الجامعة

(*) ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي ٢٩٠ ، بغية الملتمس رقم ١٢٠٤ صفحة ٤٠٣ ، والصلة لابن بشكوال ١ : ٣٩٥ طبقات الامم لصاعد الاندلسي ١١٧ ، المغرب لابن سعيد ١ : ٣٥٤ والذخيرة لابن بسام ١ـ١ : ١٤٠ ، والمعجب للمراكشي ٩٣ ، ومطمح الانفس لابن خاقان ٥٥ ونفح الطيب ١ : ٣٦٤ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ٣٤١ وشذرات الذهب ٣ : ٢٩٩ . وتاريخ الحكماء للقفطي ١٥٦ .

للاستاذ سعيد الافغاني عناية بابن حزم . راجع مقدمة كتابة: ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة. ومصادر ابن حزم وكتبه في بروكلمان : الاصل ١ : ٤٠٠ والملحق ١ : ٦٩٢. وانظر تاريخ الادب الاندلسي ١: ٣٠٣ د . احسان عباس . وتاريخ النقد الادبي في الاندلس : د . رضوان الداية .

لجمل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام . وله الإحكام في أصول الأحكام ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ، والتقريب لحدّ المنطق . قال وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل ... ونبه على عناية ابن حزم بالحديث ، وسماعه الكثير عن شيوخ كثيرين .

وإنما أريد في هذه المقدمة السريعة أن أبيّن عناية ابن حزم بالحديث والأُصول وعنايته بمناقشة أهل الملل ، ومنافحته عن المذهب الظاهري الذي التزم به وكتب فيه . وأن عنايته بالسيرة النبوية لم يكن بعيدا عن منهجه الفكري العام ، ولم يكن مشاركة عارضة لمؤلف غزير الآثار .

ونبّه محققا كتاب ابن حزم « جوامع السيرة » في مقدمة الكتاب الى صنيع ابن حزم ، وما هدف اليه من كتابة السيرة ، ومزايا الكتاب وخصائصه[٤٨] . فالهدف العلمي والتعليمي أن يضع كتابا مختصرا ، قريب المأخذ سهل المتناول ، كما فعل في كثير من رسائله التاريخيةلتقريب هذهالأغراض الى طلاّبه، والدارسين.

وتناول ابن حزم للسيرة تدخل في جملة اهتمامه بالاستكثار من النّقل والسنن متابعة لما يقتضيه الاحتجاج لمذهبه الظاهري ، فالنقل أساس من أسس المذهب الظاهري[٤٩] . والسيرة النبوية ـ الى ذلك ـ صورة عليا من الكمال الإنساني في نفس ابن حزم ، فالكتابة فيها حث على الاقتداء به ﷺ .

والسيرة دليل من الأدلة على ثبوت نبوته ﷺ . وفي هذا يقول ابن حزم : إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة بأنه رسول الله ﷺ حقا . فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى[٥٠] . وميّز بالعناية فصلين هامين هما أعلام نبوته وخلقه وشمائله لأنهما شاهدا حق على نبوة الرسول ﷺ ولان خلقه وشمائله تمثل الجانب العملي في الكمال الخلقي .

ورد في كتاب « جوامع السيرة » ذكر اثنين من مصادر ابن حزم هما : تاريخ أبي حسان الزيادى ، وتاريخ خليفة بن خياط ، وقال المحققان إن البناء العام لكتاب السيرة يدل على أن ابن حزم يتكىء كثيرا على سيرة ابن اسحاق ، وأنه أفاد في كتابه هذا مما صنعه من قبله شيخه ومعاصره أبو عمر بن عبد البر مؤلف كتاب الدرر في اختصار المغازي والسّير ... بالإضافة الى كتب أُخرى يمكن أن ترفد كتاب ابن حزم .

وتحدّث الدكتور شوقي ضيف في مقدمة «الدرر» عن استفادة ابن حزم في « جوامع السيرة » من كتاب أستاذه في الدّرر . ولكن نشر جوامع السيرة قبل كتاب الدرر لم يسمح لمحققي كتاب ابن حزم بالمقارنة بين الكتابين ، أو الإفادة منه في توثيق النص (مقدمة الدكتور ضيف للدرر صفحة ١٤ ـ ١٦)* . ويقدّر الدكتور ضيف في شيء من المقارنة والتمثيل بالأدلة أن ابن حزم أكثر من الاستفادة من كتاب (الدرر) ، وأنه « لايتابع ابن عبد البرّ في نسق كتابه وما تضمنه من الأحداث وأسماء الأعلام فحسب ، بل كثيرا مايتابعه في سرد كلامه ناقلا نص عباراته مع شيء من التصرّف أحيانا ، وقد يترك النص الذي ينقله عن أستاذه دون أي تصرّف ... »[٥١] .

وهذا اللقاء بينه وبين أستاذه يدل على وحدة المنهج ، واعتداد ابن حزم بأستاذه ، ومتابعته إياه . ويكون نقل بعض النصوص بأعيانها اكتفاء بالفحوى والنصّ عن المغايرة أو الخلاف .

(*) نشر كتاب جوامع السيرة لابن حزم في دار المعارف بمصر بتحقيق الدكتورين الاستاذين احسان عباس وناصر الدين الاسد ومراجعة الاستاذ العلامة احمد محمد شاكر .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١٦٩ ، وغيرها) • وبرنامج ابن أبي الربيع (صفحة ٤٧) وكلاهما يروي كتاب الشفا من طرق عدة، ومنها برنامج الوادي آشي كما نقل الدكتور عبد العزيز الأهواني في مقدمة برنامج ابن أبي الربيع (صفحة ١٩) •

وقد اعتنى العلماء والمحدثون والمشتغلون بالتواريخ بكتاب الشفا • ووضعوا عليه التعليقات والشروح والمختصرات • ونظم بعضهم الشفا شعراً • ولا يمكن استقصاء ذلك في مقالة كهذه • ويكفي أن يرجع الدارس الى ما ذكرته كتب التراجم والتواريخ كما في كتاب بروكمان ، وكتاب حاجي خليفة كشف الظنون (صفحة ١٠٥٢ ــ ١٠٥٣) •

وكان الاهتمام مشتركاً من المغاربة والمشارقة •*

ألف القاضي عياض كتاب الشفا تلبية لدعوة صديق أو عزيز ، واستجابة لداعي العلم وطلباً للثواب، لكني لما رجوت لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال أو ثواب بتعريف قدرة الجسيم وخلقه العظيم وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق ••• بادرت الى نكت سافرة عن وجه الغرض مؤدياً من ذلك الحق المفترض اختلستها على استعجال ••• و •••ترجمته بـ : « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » •

ويتميز كتاب الشفا بالتبويب والترتيب ، وقسمة أخباره ﷺ وشمائله وخصائصه الى أقسام ، ووضعها تحت عنوانات مختلفة • وقد حدّد القاضي منهجه في مقدمة كتابه ، ومضى عليها من أول كتابه الى آخره • قال : وحصرت الكلام فيه (الشفا) في أقسام أربعة :

القسم الأول : في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي المصطفى قولاً وفعلا • وهو في أربعة أبواب ١ ــ في ثنائه ، ٢ ــ في تكميله له تعالى المحاسن خلقاً وخلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا • وفيه سبعة وعشرون فصلا ، ٣ ــ فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها تعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته • وفيه اثنا عشر فصلا ، ٤ ــ وفيما أظهره الله على يديه من الآيات والمعجزات وشرفه من الخصائص والكرامات ، وفيه ثلاثون فصلا •

والقسم الثاني : فيما يجب على الانام من حقوقه عليه الصلاة والسلام ويترتب القول فيه في أربعة أبواب : ١ ــ في فرض الايمان به ووجوب طاعته واتباع سنته (في خمسة فصول) ٢ ــ وفي لزوم محبته ومناصحته (في ستة فصول) • ٣ ــ في تعظيم أمره وتوقيره وبرّه ٤ ــ وفي حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفصيلته (في عشرة فصول) •

والقسم الثالث فيما يستحيل في حقه وما يجوز عليه وما يمتنع ويصح من الامور البشرية أن يضاف اليه • قال القاضي عياض وهذا القسم هو سر الكتاب ولباب ثمرة هذه الابواب • وجعله في بابين : في أحواله (ص) الدينية والدنيوية •

والقسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه عليه السلام في بابين اثنين • وبعد أن عرض القاضي عياض أقسام كتابه قال : « تتم الاقسام والأبواب وتلوح في غرة الايمان لمعة منيرة وفي تاج التراجم درة خطيرة تزيح كل لبس وتوضح كل حدس•

(*)وطبع كتاب (الشفا) طبعات عديدة في المشرق والمغرب ، وطبع مع بعض الشروح ايضا . (راجع معجم سركيس ، وتاريخ الادب العربي لبروكلمان) ومن شروحة المطبوعة شرح الخفاجي . وقد كثرت نسخة في المشرق والمغرب لانه كان يورّق (ينسخ) في المساجد تبركا .

ويشفي صدور قوم مؤمنين ويصدع بالحق ويعرض عن الجاهلين ... » .

وكتاب (الشفا) كتاب متوسط الحجم بالقياس الى كتب السيرة تقريبا ، على أن القاضي ينص على أنه يكتب مختصرا » فبادرت الى نكت سافرة عن وجه الغرض مؤديا من ذلك الحق المفترض ، اختلستها على استعجال ، لما المرء بصدده من شغل البال بما طوقه الإنسان من مقاليد المحنة التي ابتلي بها فكادت تشغل عن كل فرض ونفل ... » (٥٧) .

وهو ، على كل حال ، لاحق بكتب السيرة الشاملة ، أعني التي لاتقف من الحديث عن ناحية واحدة من حياة الرسول الكريم ﷺ أو خصائصه وشمائله .. الخ . وان لم يلتزم القاضي عياض في كتابة التأريخ الكامل لمراحل حياته ﷺ، والتزم بالمنهج الذي رسمه في مقدمته : فعرف بسيرته العاطرة على وجه الإجمال ، والتفت الى التنويه بشخصه الكريم . وأخلاقه العظيمة ، وشمائله المثلى . ونقل من أخباره ﷺ وأحواله والتفاف صحابته حوله ، ووقف طويلا عند محبته ﷺ واتباع سنته ووجوب طاعته وتوقيره وتعظيم أمره ونقلا الأحكام الفقهية في ذلك .. الخ . والقاضي ــ على نقوله الكلامية ومناقشاته المختصرة والمطولة ــ يصرح بأنه لم يؤلف كتابه للرد على المنكرين ولا لنصب البراهين ، وانما يؤلفه لأهل ملته المبين لدعوته ، المصدقين لنبوته ليكون تأكيداً في محبتهم له ، ومنماة لأعمالهم وليزدادوا إيماناً مع ايمانهم . (٥٨)

واختتم القاضي كتابه بمثل ما بدأ به ، وعطف ببيان نجاز مقاصده التي قصد اليها ، من ابراز خصائصه ووسائله ، وذكر فضائله وبيان شرف مكانته ﷺ ... (٥٩) .

ولم يصرح القاضي عياض بذكر ثبت مصادره ومراجعه في مقدمة الكتاب أو في خاتمته ، ولكنه نثر ذلك في صفحات الكتاب . فكان يسوق الخبر تارة بسنده كاملا ، وكان يختصر ذلك تارة أخرى . وقد يشير الى النقل عن كتاب ويذكر اجازته أو سماعه .. الخ . وكان ينص أحيانا على النقل من ابن اسحاق . ويشير الى النقول من كتب مختلفة في الاصول والتفسير والحديث والسير والاخبار والتواريخ وكتب المتكلمين مما يخص الثقافة الاسلامية الواسعة ، ومما يرفد الكتاب الذي يؤلفه ويؤيد المنهج الذي يتبعه .

وربما يكتفي باشارة سريعة فلا يوضح اسم الكتاب المنقول ولا صاحب الفكرة أو الرأي كقوله : قد رأيت لبعض السلف (الشفا ١ : ١٦٠) وقد وقع لبعض المفسرين (١/١٦١) وقال بعض العلماء (٢/٤٦) وأضفنا بعض ماوقع من مشاهير كتب الأئمة (١ : ٢٠٥) ... الخ .

وتظهر لك شخصية القاضي عياض في انتقائه ، واختياره ، وفي منهجه الذي رسمه وقدرته على ضبطه ومتابعته ، وفي إبداء الرأي في قضايا مختلفة تخص الفقه أو الأصول أو علم الكلام أو الاخبار ...

كما يظهر شيوخه الذين روى عنهم ، ونخص منهم أبا علي الصدفي الشهيد ويظهر أعلام السير والكلام والفقه والأصول في نقوله عنهم وروايته المتصلة بهم .

وعلى العموم يحرص القاضي عياض على رواية الأخبار بأسانيدها ، ونسبة الآراء الى أصحابها، والنص على النقول من كتب يسميها أو يسمي أصحابها...وقد يعدل عن هذا ، مكتفياً بشهرة الخبر أو باعتماده ، وتحمله مسؤوليته وتوثيق نسبته . ولاشك في أن

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وذكر أبو الربيع الكلاعي مقصده من هـذا التأليف وعينه في نقطتين :

ـ أن المراد فيه بالقصد الاول وجه الله سبحانه وتعالى .

ـ والقصد الثاني الرغبة في ايناس الناس بأخبار نبيهم (ﷺ) . فان من قرأ سيرته (ﷺ) وجد فيها القدوة الحسنة : فيستجزل ثواب الفرح بنصر الله ، ويصبر على المحن والشدائد ويصطبر للشدائد ، ويتأدب بآدابه (ﷺ) .

ولخص في مقدمة الاكتفا (طبعة القاهرة) صنيع أبي الربيع الكلاعي في كتابه بأنه تأنى في الاختيار والترتيب واستكمل النقص وجمع المزايا ، كما يفهم قارىء مقدمة المؤلف[٦٩] . وكان الكلاعي لايتدخل برأيه الا عندما تختلف الروايات ليفصل فيها ويرفع الاشكال . وأنه ربما فصل بين بعض الاحاديث المتشابهة لضرورة ... الخ .

٥ ـ ابن سيد الناس اليعمري* ٦٧١ ـ ٧٣٤

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الربعي . أصل سلفه من الاندلس . وكان جده الاعلى قد دخل الاندلس في الايام الاولى واسكنه بلج بن بشر أبذه جيان لشبهها بمنبج الشام أصلهم القديم . وكان جده أبو بكر محمد خطيب المسجد الجامع بتونس ، وعده بالنثيا في متابعي مذهب ابن حزم الظاهري .

ولد أبو الفتح محمد بن سيد الناس في القاهرة سنة ٦٧١ . قال الصفدي : وهو من بيت رياسة وعلم (يشير الى مكانة أسرته بالاندلس ، باشبيلية) عنده كتب كثيرة وأصول جيدة . سمع وقرأ وارتحل وكتب وصنف وحدث وأجاز ، وتفرد بالحديث في وقته .

... واستطرد في ذكره مشاهير شيوخه ثم قال، ولعل مشيخته يقاربون الالف . ونقل الصفدي في صفته : وكان طيب الاخلاق بساما صاحب دعابة ولعب. وكان صدوقا في الحديث حجة فيما ينقله له بصر نافذ بالفن وخبرة بالرجال وطبقاتهم ومعرفة بالاختلاف ويدطولى في علم اللسان ومحاسنه جمة .

قال : وكان صحيح القراءة سريعها ، سريع الكتابة . كتب ختمة في جمعه . وكان يكتب السيرة التي له في عشرين يوما وهي مجلدان كبيران وبرع بكتابة الخطين المغربي (الاندلسي) والمشرقي . وكان صحيح العقيدة جيد الذهن يفهم به النكت العقلية ويسارع اليها ولكنه جمد عقله لاقتصاره به على النقل[٧١] .

وكان بيده مع مشيخة الظاهرية (بمصر) مدرسة أبي حليقة على بركة الفيل ومسجد الرصد وخطابة جامع الخندق . وله رزق . وله في صفد راتب ، وفي حلب فيما أظن[٧٢] .

وقد أحضر كتبا جمة ثمينة ، أغلبها أحضر له من تونس في جملتها تاريخ ابن ابي خيثمة والمحلى لابن

(*) ترجم له معاصره وصديقه صلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات ١ : ٨٩ ـ ٣١١ . وابن شاكر في الفوات ٢ : ٣٤٤ وابن الاثير في البداية والنهاية ١٤:١٦٩ وابن حجر في الدرر الكامنة ٤ : ٣٣٠ والسبكي في طبقات الشافعية ٦ : ٢٩ وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٩ : ٣٠٣ والشوكاني في البدر الطالع ٢ : ٢٤٩ وابن العماد في الشذرات ٦ : ١٠٨ .

وانظر ايضا : ثبت شيخ الاسلام زكريا الانصاري الورقة ٣٤ . ومقدمة عيون الاثر .

حزم والتمهيد والاستيعاب لابن عبد البر والاستذكار له ، وغير ذلك .

وصنف « عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير » ، ومختصره الذي سماه « نور العيون في سيرة الامين المأمون » . ومن مصنفاته :

تحصيل الاصابة في تفضيل الصحابة وكتاب بشرى اللبيب بذكرى الحبيب [٧٣] ، ومنح المدح والمقامات العلية في كرامات الصحابة الجليلة . وله شعر كثير .

وقال ابن قاضي شهبة فيما نقله ابن العماد : سمع من الجم الغفير وتفقه على مذهب الشافعي وأخذ الحديث عن والده وابن دقيق العين ولازمه سنين كثيرة وتخرج عليه وقرأ عليه أصول الفقه وقرأ النحو على ابن النحاس .. » . وكانت له رحلة الى دمشق .

أما كتابه في السيرة فهو : عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير وقصد فيه الى ان يكتب السيرة بحيث يتجنب فيها اطالة المكثر واخلال المقل . ومع ذلك فانه يقول عن سبقوه « فليس لي في هذا المجموع الا حسن الاختيار من كلامهم والتبرك بالدخول في نظامهم »[٧٤] . وأنه انما يجمع المتفرقات وينظمها ويختار منها . وهو بلا شك يعتمد الروايات الصحيحة ، ويأخذ بالاخبار الموثوقة ويتدخل حيث يمكن له ان يبدي رأيا أو يناقش قضية .

وأوضح منهجه الذي اتبعه من الاختصار والايجاز « سالكا في ذلك ما اقتضاه التاريخ من ايراد واقعة بعد أخرى لا ما اقتضاه الترتيب من ضم الشيء الى شكله ومثله حاشا ذكر أزواجه وأولاده عليه السلام » ، فانه لم يسق ذلك على ما اقتضاه التاريخ (من تسلسل الوقائع) بل أتبع به باب المغازي والسير من باب الحلى والشمائل ، الا تزويجه السيدة خديجة (ع) لما وقع في أمرها من أعلام النبوة .

وأضاف الى ذلك تتفا من الاشعار وأشياء في الانساب . ولم يثقل الكتاب بذكر الاسانيد وكتب السنن والسير والمصنفات المختلفات ، بل اكتفى بأن ذكر كله مجملا في آخر الكتاب (وسنتحدث عنها في مصادره) . أما في الفوائد الملتقطة والاجزاء المتفرقة فكان يذكر أسانيده فيها في مواضعها .

وأما في الانساب فكان يذكرها مرة ثم لايكررها اكتفاء برموز يحيل عليها اختصارا[٧٥] : مثل (سا) للسابقين الاولين و (ها) للمهاجرين الاولين ــ الى ارض الحبشة ــ الخ ..

مصادره : قال ابن سيد الناس : وعمدتنا فيما نورده على محمد بن اسحاق ، ونبه الى ملاحظة لطيفة فأضاف « اذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا » .. الا أن ابن سيد الناس كان يذكر خبر ابن اسحاق اذا ورد عند غيره مسندا ، ترجيحا لمكان الاسناد .

ونقل عن الواقدي . وعقد فصلا مطولا للحديث عن الرجلين لبيان حالهما (*) .

وفي خاتمة الكتاب تحدث المؤلف عن الاسانيد التي وقعت له من المصنفين الذين اعتمد كتبهم في تأليف سيرته[٧٦] . وذكر من الكتب : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود وكتاب الجامع للترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه . قال : وما كان في الكتاب عن ابن اسحاق ضمن السيرة النبوية النبوية من رواية ابن هشام وتهذيبه . وما كان فيه من كتاب المغازي عن موسى بن عقبة فعن الامام عز

(*) وكان السهيلي قدم بتعريف حال ابن اسحاق (الروض الانف ١ : ٤ ــ ٥) .

الدين الغاروني وجماعة . وذكر من مصادره أيضاً كتاب المغازي لابي عبد الله القرشي . وكتاب الطبقات الكبير لابن سعد . ومارواه عن الطبراني وأبي يعلى الموصلي وأبي بشر الدولابي وأبي عروبة الحراني بأسانيدذ كرها . ومن مصادره ايضا معجم أبي الحسين الغساني .

ومن مصادره : الدرر في احتضار المغازي والسير لابن عبد البر . وكتاب الانساب للرشاطي والشفا للقاضي عياض والروض الانف للسهيلي . وطرركتبها الشلوبين على هامش السيرة الهشامية على نسخة بخط جده ابي بكر .

وهذه الكتب والتعليقات جميعاً أندلسية .

وقد تحدث الدكتور شوقي ضيف في مقدمة (الدرر) عن استفادة ابن سيد الناس من كتاب ابن عبد البر ، قال : ولعل أهم من خلفوا ابن عبد البر افادة من سيرته ابن سيد الناس (ت ٧٣٤) فقد جعلها نصب عينيه في سيرته النبوية المطولة التي سماها عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير . وفيها ينقل فصولا وفقرا كثيرة عن ابن عبد البر مصرحا باسمه غالبا وقد راجعه كثيرا في أسماء الاعلام وفي جوانب مختلفة من مادة سيرته وآرائه أوكتابه . وقال د. ضيف في مكان آخر : وقد كثرت نقول ان سيد الناس عن سيرة ابن عبد البر كثرة مفرطة(٧٦) ، ودائما يرجع الى كتابه الاستيعاب في موازناته ومراجعاته . بل ان د. ضيف يرى ان سيرة ابن سيد الناس تحولت الى مايشبه نسخة من كتاب الدرر الخ .

وقد أثنى معاصرو ابن سيد الناس على كتابه ، وشاع في الناس . وكان يكثر من كتابه بخطه . وكان في جملة مرويات شيخ الاسلام زكريا الانصاري من كتب السيرة ، كما ذكر في فهرسة شيوخه (٧٧) وقد عني بها جماعة اختصارا ، ونظما وشرحا مما يطول التفصيل فيه ، في هذا المقام .

واختصر المؤلف كتابه (عيون الاثر) بمختصر لطيف سماه نور العيون في تلخيص سيرة الامين المأمون . وقال في مقدمته : لما وضعت كتابي المسمى عيون الاثر في فنون المغازي والسير ★ ممتعا في بابه مغنيا عما سواه لقاصدي هذا العلم وطلابه رأيت ان الخص في هذه الاوراق منه ماقرب مأخذه ونقله وسهل تناوله وحمله ليكون للمبتدىء تبصرة والمنتهي تذكرة وسميته « نور العيون في تلخيص سيرة الامين والمأمون » .

ونور العيون ملخص سريع ، شاف ، على ترتيب وقائع السيرة النبوية بأسلوب مقبول ، وعرض دقيق .

ابو القاسم السهيلي* ٥٠٨ ـ ٥٨١

هو أبو القاسم ، وأبو زيد ، عبد الرحمن بن عبد الله ... بن فتوح وهو الداخل الى الاندلس ، السهيلي الخثعمي . مولده بقرية سهيل من اعمال

(★) طبع كتاب عيون الاثر بعناية الاستاذ حسام الدين القدسي معتمدا على اصول جيدة ومعاونة (راجع مقدمته) سنة ١٣٥٦هـ . وطبع كتاب نور العيون سنة ١٣٥٤ هـ بعناية رضوان محمد رضوان . طبع كلاهما في القاهرة .

(★) ترجم له الضبي في بغية الملتمس ٣٥٤ . وابن دحية في المطرب . ٢٣ . وابن سعيد في المغرب ١ : ٤٤٨ . وابن خلكان في الوفيات ٢ : ٣٢٣ وابن فرحون في الديباج ١٥٠ وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٠ وابن العماد في الشذرات ٤ : ٢٧١ والصفدي في نكت الهميان ١٨٧ وصفوان بن ادريس في زاد المسافر : ٩٦ .

مالقة ونشأ بمالقة ، وتعلم ، وظهر • وسمع من كثير من أهلها ورحل الى اشبيلية فلزم القاضي أبا بكر ابن العربي وأخذ عنه كثيرا من الحديث والاصول والتفسير ، وسمع من غيره من مشاهير أهل اشبيلية • وبرع في علوم القرآن والحديث والنحو والصرف واللغة والادب •

كان مولده سنة ثمان وخمس مائة ووفاته سنة احدى وثمانين فيمدينة مراكش وله الابياتالمشهورة:

يا من يرى مافي الضمير ويسمع
أنت المعد لكل ما يتوقع

قال تلميذه ابن دحية ، في الطرب[٧٨]: وتصانيفه كثيرة فمذهَبَتُها : كتاب « الروض الأنف والمشرع الروى في تفسير ما اشتمل عليه حديث رسول الله ﷺ واحتوى » • وله أيضاً : « التعريف والاعلام فيما أبهم في القرآن منالاسماء الاعلام» • قال ابندحية وسمعت عليه مسألة رؤية الله تعالى في المنام ورؤية النبيﷺ •

ومن كتبه (نتائج الفكر) ، وغيره •

قال ابن خلكان : وأشعاره كثيرة ، وتصانيفه ممتعة • وكان ببلده يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف حتى نمي خبره الى صاحب مراكش (الامير الموحدي) فطلبه اليها وأحسن اليه وأقبل اليه بوجهه غاية الاقبال، وأقام بها نحو ثلاثة أعوام •

وبمراكش كانت وفاته •

وذكر الرعيني في برنامجه عددا من الذين رووا عن السهيلي كتابه الروض الانف من الاعلام (أنظر مثلا ص ٥٢ وغيرها) •

كان كتاب الروض الأنف من الكتب الذائعة أيام المؤلف ، وبه اشتهر دون غيره من الكتب والمؤلفات ، وقد رواه عنه جماعة من تلامذته في الأندلسوالمغرب• وكتب للروض الأنف السيرورة بعد مؤلفه ، الىزماننا هذا ، قال بالنثيا في تاريخ الفكر الأندلسي (٣٩٨) وممن اشتهر بالتحقق فيعلوم الحديث عبد الرحمن ابن عبد الله السُّهيلي : وكان عالما بالقراءات واللغات والعربية وضروب الآداب ، حافظا للسير والأخبار والأنساب إماما في الحفظ والذكر والادراك ، مقدما في الفهم والفطنة والذكاء ، له حظ وافر من قرض الشعر والتصرّف في فنون من العلم يغلب عليه علم العربية والغريب وأشهر كتبه الروض الأنف في شرح السيرة لابن إسحاق • وهو أجلّ تواليفه ، دلّ به على سعة حفظه ومتانة علمه •

وذكر السهيلي في مقدمة الروض الأنف انه يشرح سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام ، وذكر طرقه في روايتها ، وأنه بدأ الشرح إملاء في محرم سنة ٥٦٩ وفرغ منه في جمادى الاولى من ذلك العام •

وقد أفاد في كتابه قارئه من : فوائد العلوم والآداب وأسماء الرجال والأنساب ومن الفقه والنحو والاعراب ، مما استخرجه من عشرينومئة كتاب ، قال: هذا « سوى ماأنتجه صدري ونفحه فكري وتنجه نظري ولقنته عن مشيختي من نكت علمية لم أُسبق اليها ولم أزحم عليها ••• مع أني قللت الفضول وشذبت أطراف الفصول[٧٩] •

ويمكن إيجاز عمله بخمسة أمور ، العناية باللفظ الغريب ، وشرح الكلام المستغلق ، وإعراب الغامض ، والحديث في بيان النسب وتتمة الأخبار الناقصة[٨٠] •

وقد ذكر السهيلي في كتابه أسماء بعض مصادره وأغفل كثيرا منها • ومما ذكره تفسير بقي بن مخلد ، وبعض كتب ابن العربي ، وأبي علي القالي وابن دريد وأبي الفرج الأصفهاني ••• الخ •

والكتاب مرجع ضخم ، هام لإيضاح مسائل من السيرة ويشرح كثير من غريبها ومعاني أشعارها ، ولاضافة فوائد مختلفة قيّمة في النسب واللغة والنحو والأدب والخبر .

وقد طبع « الروض الأنف » بهذا العنوان (قابل بما قاله ابن دحية من عنوان الكتاب) . وطبع بهامشه سيرة ابن هشام في جزأين ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م . بالقاهرة .

أبو ذرّ الخشني(★) ٥٣٣ ــ ٦٠٤ هـ

هو أبو ذر مصعب بن أبي بكر محمد (المعروف بابن أبي رُكَب) بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني ، قال مؤلف الذخيرة السنية (٨١) : الأستاذ المقرىء النحوي الجليل القدر . أصله من جيّان (بالأندلس) روى عن أبيه وعن أبي بكر بن طاهر ، وتجوّل بالعدوة والأندلس ، وطلب العلم واعتنى به وقيّد . وروى بفاس عن جماعة ... وروى بقرطبة عن ابن بشكوال وغيره ، وروى ببجاية عن عبد الحق الأزدي الاشبيلي وكتب اليه الإمام أبو الطاهر السلفي وأبو محمد الدياجي .

قال « وكان رحمه الله أحد الأئمة المتقدمين ضبطا وتقييدا ، وأحد المعتمد عليهم في علم اللغة والآداب ، اماماً في العربية ، عالماً بكتاب سيبويه » . ووصفه بالفضل والدين والورع .

وأقرأ أبو ذر الخشني ببلده جيّان ، وببجاية وإشبيلية وفاس وبها استقر الى أن توفي سنة ٦٠٤ . وقد تولى الخطبة بجامع إشبيلية مدة ، وكان يقرىء العربية بها أيضاً . وولي القضاء للمنصور الموحدي ببلدة جيان . ونقل في الذخيرة أيضا أن الإمام الحافظ المزدغي كان يقدمه في العربية وفي علم الحديث ويقول: كتابان لايُحسن أحد أن يمسكهما في يده مع أبي ذر: وهما مسلم (الصحيح) والسّير ، يعني في الضبط والتقييد ، وكان مع ذلك راوياً لكتب كثيرة في فنون شتى من العلم .

وله إملاءٌ حسن على كتاب السّير .

وله شعر رائق في فنون شتى .

وترجم له ابن الابار في التكملة ، وذكر أنه سمع عن علماء (سمّاهم) بجيان وتلمسان وبجاية وفاس ، قال وكان رئيساً في صناعة العربية عالماً بها قائماً عليها درّسها حياته كلها ورحل الناس اليه فيها مع المعرفة بالآداب واللغات والأخذ بحظ من قرض الشعر .

وكان أبو بكرمحمد منعلماء الأندلس ومحدّثيها، وله فهرسة (برنامج) جمعه ابنه مصعب (أبو ذرّ) ، ذكر ذلك أستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني في مقدمته على برنامج ابن أبي الربيع (صفحة ١١) .

شرحه على السّيرة : كان أبوذر الخشني كما تذكر

(★) ترجم له ابن الابار في التكملة (طبعة مصر ٢ / ٧٠٠) وصاحب الذخيرة السنية ٤٢ ، وابو بحر صفوان في زاد المسافر ١٤٧ . وانظر برنامج شيوخ الرعيني صفحة ٤٥ ، وبرنامج ابن ابي الربيع صفحة ١١ . وترجم له ابن سعيد في المغرب ٢ : ٥٥ والسيوطي في البغية ٢ : ٢٨٧ وابن سعيد في الرايات ١٠٣ وابن العماد في الشذرات ٥ : ١٤ .

وترجم الضبي لابيه ابي بكر صفحة ١٢١ . وياقوت في معجم الادباء ١٩/٥٤ .

والسيوطي في بغية الوعاة ١ : ٢٤٤ وتوفي ابوه (ابو بكر) سنة ٥٤٤ .

الكتب القليلة التي ترجمت له بارعاً في اللغة وعلومها ، كما يذكر ابن الأبار أنه قد بعد صيته في الإقراء والتدريس • وكان على خطة فذة في التدريس « فقد منع تلاميذه التبسّط في السؤالات وقصرهم على مايُلقى اليهم دون استزادة ، ولم يكن ذلك لأحد من أهل عصره ! »(٨٢) •

وقال ابن الأبار أيضا : وله تأليف في شرح غريب السير لابن إسحاق ، وتأليف صغير في العروض •

وقال السيوطي : من تصانيفه : الإملاء على سيرة ابن هشام • وقد طبع الكتاب بعنوان : (شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ، وذلك سنة ١٣٢٩ هـ بمصر • استخرجه وصححه بولس برونله •

ونقرأ في مقدمة المؤلف : هذا إملاء أمليته من حفظي بلفظي على سيرة رسول الله ﷺ التي تقدم محمد بن إسحاق الى جمعها وتلخيصها أوان سمع هذا الكتاب منّي ، وقيدت رواياته بطرقها عني ، قصدت فيه شرح ما استبهم من غريبه ومعانيه وإيضاح ما التبس تقييده على حامله وراويه ، مع اختصار لايخل وإيجاز يتم به البيان ويستقل ، لم يقصد فيه قصد التأليف فتمد أطنابه ولا ينحو به نحو التصنيف فتمهد فصوله وأبوابه ، وإنما هي عجالة الخاطر وغنية الناظر •

ثم عرض عليّ هذا الإملاء بعد كماله فتصفحته ، ورغب في حمله عنّي فبعد لأي ماأذنت في ذلك وأبحته •

والله تعالى ينفعنا بما قصدناه ويجزل ثوابنا على ما ابتغيناه وتوخيناه ••• الخ » •

ويظهر طابع الإملاء على الكتاب ، وكان مبيّض الكتاب (أو جامعوه) يحرص على عبارة « حدثنا الشيخ الفقيه أبو ذرّ » مرّة بعد مرّة من أول الكتاب الى آخره •

وقد جعله الناشر في جزأين • غير أن المؤلف قسم كتابه على عشرين جزءا ، وأثبت الناشر تجزئة المؤلف، فقد كان ينص على نهاية الجزء وبداية الذي يليه •

وشرح أبي ذر الخشني على السيرة يهتم بشرح الغريب من اللغات والأسماء والأعلام • وشرح العويص من الشعر الذي ذكره ابن اسحاق • وإضافة ايضاحات من العربية والنحو والصرف وما يتعلق بذلك • وكان ينسب الأبيات أو ينبه على روايات في نسبتها •

وكان يذكر أحيانا بعض المصادر وأسماء بعض المؤلفين مثل قاسم بن ثابت صاحب الدلائل والخطّابي، والوقشي ، وتفسير ابن هشام لغريب السيرة والنقّاش، وابن عبد البر القرطبي ، وموسى بن عقبة ••• الخ

وكان يرجع الى كتب التفسير والقراءات والأنساب، ويصحح بعض الأنساب (صفحة ٩٩ مثلاً) ، وينقل عن كتب السنن والسّير لإيضاح النص أو معارضته أو ايراد روايات أخرى • (انظر مثلاً ٢٣٦) •

وربّما نقل عن شيوخه مغفلا الاسم ، وقد يذكره (راجع مثلاً ١٢٦) •

ولا شك في أن أباذر الخشني كان يرجع الى روايات السيرة ، سوى رواية ابن هشام ، والى الكتب المعتمدة في السنن والسير ، وأن التراث الأندلسي بخاصة كان تحت يده أو في المرويّ المحفوظ ، كما مرّ مثلاً من ذكر قاسم بن ثابت والوقشي وابن عبد البر وغيرهم بالإضافة الى شيوخه الذين عاصرهم وأخذ عنهم •

وكتاب أبي ذرّ ، يدل على علم غزير واطلاع

واسع ومعرفة بفنون اللغات والآداب والأخبار والأنساب والسّير ، وعرف له معاصروه هذه الخصائص فقدموه وأخذوا عنه .

وبعـد

فهذا ماتيسّر الحديث فيه من (السيرة النبوية في التراث الأندلسي) قصـدت فيه الى رسـم الخطوط العريضة ، وإثارة الانتباه الى أهمية الموضوع ، وأن أصيب من المعلومات ، والاضافة ، والتحليل ، ماتطيقه مقالة في مجلة ، وما أستطيعه من النظر في الكتـاب المطبوع الممكن الرجوع اليه على وجه .

وآمل أن أتابع هذا الموضوع باستيعاب ، وتفصيل وزيادة تحليل ، أو أن ينهض به مهتم بالتراث الأندلسي ، محبّ له .

والحمد لله رب العالمين .

□ □

حواشي واحالات :

(١) فهرسة ابن خير الاشبيلي ــ الطبعة الثانية ــ بيروت ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٣ م راجـع مثلا صفحة ١١٠ ، ١٥١ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، وغيرها . وانظر في المسارد مواد : الاعـلام والسيرة والشمائل والفتوح ، والمغازي ..

(٢) الجذوة ٣٥٤ وبغية الملتمس ٤٨٨ .

(٣) برنامج شيوخ الرعيني دمشق صفحة ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ٥٢ .

(٥) المصدر نفسه ٦٠ .

(٦) المصدر نفسه ١٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ٤٥ .

(٨) المصدر نفسه ١٤٨ .

(٩) برنامج ابن أبي الربيع ٤٧ .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) مقدمة التحقيق كتاب الدرر للدكتور شوقي ضيف .

(١٢) الاكتفا للكلاعي ٥٥ طبعة اوربة . وقد بقيت منـه قطع في لندن ومدريد .

(١٣) عيون الاثر ٢ : ٣٤٧ .

(١٤) نفح الطيب ٥ : ٤١٤ .

(١٥) الذيل والتكملة ٥/٢ : ٢٧٨ .

(١٦) الذيل والتكملة ١ : ٣٥٦ .

(١٧) نفح الطيب ٢ : ٢٠٧ .

(١٨) عنوان الدراية ٢٢٨ .

(١٩) نفح الطيب ٦ : ١٤٥

(٢٠) الذيل والتكملة ٥٢١/٢ .

(٢١) عنوان الدراية ٢٢٨ .

(٢٢) نفح ٢ : ٥٩٩ والذيل والتكلمة ٢ : ٥٢١ .

(٢٣) عيون الاثر ٢ : ٣٤٧ .

(٢٤) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٢٩ .

(٢٥) تاريخ الفكر الاندلسي ٣٨٩ .

(٢٦) طبقات الزبيدي ٢٢٩ .

(٢٧) الذيل والتكملة ١/١ : ٣٥٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ٢/١ : ٥٢١ .

(٢٩) الاعلام للزركلي ٧ : ٢٦٣ .

(٣٠) فهرسة ابن خير ٤٢٠ .

(٣١) برنامج شيوخ الرعيني ١٦٩ .

(٣٢) جذوة المقتبس ٣٤٦ .

(٣٣) الصلة لابن بشكوال .

(٣٤) المغرب ٢ : ٤٠٧ .

(٣٥) جذوة المقتبس ٣٤٥ .

(٣٦) وفيات الاعيان ٦ : ٦٩ .

(٣٧) الجذوة ٣٤٤ .

(٣٨) طبع بعنوان بهجة المجالس وانس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس .

(٣٩) يعني كتاب الاستيعاب في معرفة الاصحاب .

(٤٠) الدرر ٢٩ .

(٤١) مقدمة تحقيق الدرر : ١٣ .

(٤٢) المصدر نفسه . (٤٢ مكرر) حقق الدكتور سهيل زكار قطعتين هامتين من سيرة ابن اسحاق برواية ابن بكير وطبعه في دار الفكر (بيروت ١٩٧٨) بعنوان كتاب السير والمغازي .

(٤٣) مقدمة الدرر ٩ .

(٤٤) راجع المقدمة .

(٤٥) النفح ١ : ٣٣٧ .

(٤٦) عصر سيادة قرطبة ٣١٨ . (٤٦ مكرر) المصدر نفسه .

(٤٧) جذوة المقتبس ٤٧ .

(٤٨) انظر مثلا ٥ — ١٤ من جوامع السيرة .

(٤٩) مقدمة جوامع السيرة : ٥ .

(٥٠) الفصل ٢ : ٩٠ ، وراجع المقدمة صفحة ٦ .

(٥١) مقدمة الدرر : ١٥ .

(٥٢) تاريخ الفكر الاندلسي ٣٩٧ — ٣٩٨ .

(٥٣) التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد .

(٥٤) التعريف بالقاضي عياض ٢ — ٥ .

(٥٥) التعريف .

(٥٦) نقل القاضي النباهي في المرقبة ان القاضي (عياض) سكن بمالقة مدة وتمول بها املاكا .

(٥٧) الشفا ١ : ٤ — ٥ .

(٥٨) الشفا : ٢٠٤ .

(٥٩) الشفا ٢ : ٣٤٤ .

(٦٠) المرقبة ١١٩ .

(٦١) الذيل والتكملة ٤ : ٨٣ — ٨٤ .

(٦٢) الذيل والتكملة ٤ : ٨٥ .

(٦٣) الذيل ٤ : ٨٩ .

(٦٤) الروض المعطار ٤١ ونفح الطيب ٤ : ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٦٥) الاكتفا ١ : ٥٠ .

(٦٦) الاكتفا ١ : ٥٢ .

(٦٧) الاكتفا ١ : ٥٣ .

(٦٨) الاكتفا ١ : ٥٥ .

(٦٩) الاكتفا « ط الخانجي بمصر » — مقدمة المحقق .

(٧٠) تاريخ الفكر ٢٣٨ .

(٧١) الوافي بالوفيات ١ : ٢٩١ .

(٧٢) المرجع نفسه .

(٧٣) ذكر سركيس في معجمه انه طبع قسم من الكتاب .

(٧٤) عيون الاثر ١ : ٦ .

(٧٥) عيون ١ : ٧ .

(٧٦) عيون ٢ : ٣٤٢ .

(٧٦) مكرر — الدرر : مقدمة : ١٧ — ١٨ .

(٧٧) الورقة ٣٤ .

(٧٨) المطرب ٢٣٦ .

(٧٩) الروض الانف ١ : ٣ .

(٨٠) المرجع نفسه .

(٨١) صفحة ٤٢ .

(٨٢) التكملة لابن الابار ٢ : ٧٠٢ .

الأثر العربي الشرقي في القانون الروماني - اللاتيني

المحامي أحمد غسان سبانو

على أرض الوطن العربي كان فجر الانسانية ، وأول حضارة عرفها العالم تلك الحضارة التي هي بحق أم الحضارات العالمية ، انها حضارة عربيةسامية بدأتمعفجر الانسانية واستمرت دون انقطاع حتى هذا العصر وستبقى مستمرة ما دام على هذا الكوكب نبضة حياة .

ان حضارتنا العربية العريقة تعود الى آلاف السنين الغابرة الا ان دراستنا لتاريخ حضارتنا ما زال في بدايته وقد سبقنا الى هذه الدراسة علماء الغرب فألفوا ووضوا النظريات والتفسيرات بما يرضي هواهم فقسموا حضارتنا ، وقربوا بعضها وأبعدوا بعضها ، هنا حضارات سامية ، وهنا غير سامية، هنا حضارة تعود لاقوام هاجرت من الجزيرة العربية ، وهنا أقوام لا نعرف أصلهم وفصلهم ، وهدفهم في ذلك واضح ومعلوم .

من ذلك كانت نظرتنا للتراث متضاربة مختلفة ، فبعضنا يعتبر تراثنا هو التراث العربي الاسلامي ، وبعضهم يعيده للوراء قليلا أو كثيرا ، بعضهم يقول قد انقطعت صلتنا بالماضي ، فنحن والقدماء علىفراق . الا أن الحقيقة والواقع أن حضارتنا واحدة ومنشأنا بالاصل واحد . عالمنا العربي وشعبنا واحد ، واباؤنا مهما قسموا أو بعدوا ، هم سكان أرضنا العربية ، وتراثهم تراثنا .

الا أن اضاعتنا لتلك الفترات القديمة والمتوسطة القدم في تاريخنا باعد بين التراث مما أوجب علينا البحث والتقصي لنعيد الحق الى نصابه ولنحفظ تراثنا المهدد بالضياع . ولنعرف جماهيرنا صفحات مشرقة من تاريخنا الذي ضمته متاحف ومعاهد التراث الاجنبية ومكتبات الغرب .

من هذه الصفحات ندرس الآن الأثر العربي الشرقي في أهم منجزات الرومان الحضارية ولعلها الوحيدة الا وهي المنجزات القانونية الرومانية لنعرف حقيقة « رومنتها » وتأثير أجدادنا العرب فيها .

تسهل دراسة روما والشعب الروماني لوضوح التأسيس ووضوح التأثير الاجنبي ، ووضوح التكوين .

فلقد نشأت مدينة روما من اتحاد قبائل